

الجامعة المصرية في عالم الحرية ١ - أقصور أم تقصير؟

طه حسين

مجلة المصور

١٨ مايو ١٩٣٤

لا أريد أن أكون لاذعاً ولا ممضاً، ولا أن أثقل على الأدباء والكتّاب في هذا الحديث، وإن كانت نفسي تنازعني في ذلك أشد النزاع، وتدفعني إلى ذلك دفعاً عنيفاً؛ لأنني حريص على أن أكون رفيقاً بكتّابنا وأدبائنا في هذه الأيام التي ضاقت فيها نفوس الناس بكل شيء، وأصبح فيها النقد إثماً من الآثام، واللوم كبيرة من الكبائر، والتلميح الرقيق تصريحاً ثقيلاً جارحاً مؤذياً شديد الإيذاء، ومع ذلك فموضوع هذا الحديث يدعو إلى شيء من الشدة والعنف، ويدفع إلى شيء من اللوم والنقد غير قليل، ويكفي أن تعرف موضوع هذا الحديث؛ لتشاركني في الرأي ولتنتهي معي إلى ما أريد. ما بال أدبائنا وكتّابنا وشعرائنا يرحلون عن مصر ويزورون الأقطار المختلفة، ثم يعودون وكأنهم لم يرحلوا، ويرجعون وكأنهم لم يفارقوا أرض الوطن، متاعهم العقلي والأدبي كما كان حين ارتحلوا لم يضيفوا إليه شيئاً، أو لم يكادوا يضيفون إليه شيئاً، وإنتاجهم الأدبي — كما كان — لم يتغير لا في جوهره ولا في شكله، أو لم يكد يتغير، يزورون أقطار الأرض ويطوفون في الآفاق، ويرون أجيالاً من الناس، ويتأثرون بألوان من المؤثرات، ثم لا يظهر لذلك أو لا يكاد يظهر لذلك أثر — فيما ينشئون — من النثر وما يقرضون من الشعر، كأنما ما رأوا وما سمعوا لم يلهمهم شيئاً، ولم يوح إليهم

بشيء، كأنما كانت الطبيعة على اختلاف مناظرها خرساء، لا تحسن أن تتحدث إليهم، أو كأنما كانوا صُمًّا لا يُحسنون أن يستمعوا إليها! أليست هذه المسألة خليقة أن نفكر فيها فنطيل التفكير، وأن نلتمس لها جوابًا مقنعًا، مهما يكلفنا التماس هذا الجواب من مشقة البحث والاستقصاء، ومهما يكلفنا إعلان هذا الجواب من سخط الكتّاب والشعراء. بلى، فليس من الحق أن الطبيعة قاصرة عن أن تلهم الكتّاب والشعراء، وتوحي إلى المفكرين وأصحاب الفن، وتمكن أولئك وهؤلاء من إنتاج الآثار الأدبية والفنية الرائعة البارعة، وآية ذلك أن هذه الطبيعة تلهم أدباء الغرب، وتتيح لهم أن يملئوا الأرض بآثارهم الأدبية والفنية، التي تختلف — فيما بينها — أشد الاختلاف، وتتفاوت أعظم التفاوت، ولكنها على كل حال آثار قيّمة ممتعة، بعضها يثير لذة موقوتة، وبعضها يثير لذة مجددة لا يعرف الفناء إليها سبيلًا، بل أنك لتستطيع أن تنظر إلى هذه الآثار الأدبية التي أوحى بها مصر وحدها إلى الفرنسيين وحدهم في هذا العصر الحديث وحده، فتري عجبًا من العجب، وتساءل نفسك عما ترى حقيقة هو أم خيال، وحسبك أن تعلم أن أستاذًا فرنسيًا عرض لهذا الموضوع فألف فيه كتابًا يشتمل على مجلدين ضخمين، وهو مع ذلك حريص على الإيجاز، متجنب للإطالة، مُعرض عن غير الأدباء من الذين زاروا مصر وعنوا بها عناية ما، فكيف إذا قرأت آثار هؤلاء الأدباء نفسها! وكيف إذا نظرت إلى ما أوحى مصر إلى الإنجليز، وما أوحى إلى الإيطاليين، وما أوحى إلى الألمان، وما أوحى إلى غير أولئك، وهؤلاء من الغربيين الذين يزورونها، ثم يعودون إلى بلادهم، ومعهم كتاب أو قصة أو ديوان.

أليس غريبًا أن مصر هذه التي توحي إلى أدباء الغرب بكل هذه الآثار لا تلهم أو لا تكاد تلهم أبناءها شيئًا، أليس غريبًا أن اللذة الأدبية

العالية التي ينبغي أن تثيرها مصر في نفوس المصريين لا ينبغي أن تلتبس عند كُتّابنا وشعرائنا، وإنما ينبغي أن تلتبس عند كُتّاب الغرب وشعراء الغرب، فإذا أنت تجاوزت مصر إلى غيرها من البلاد الغربية أو الشرقية، التي يغشاها كُتّابنا وشعراؤنا من حين إلى حين؛ فلن تظفر بشيء يصورها في آثار هؤلاء الكُتّاب والشعراء إلا هذه الأطراف القليلة اليسيرة، التي لا تغني ولا تكاد تذكر.

خطرت لي كل هذه الخواطر حين كنت أقرأ منذ أيام في كتاب ممتع للكاتب الفرنسي أندريه جيد يصف فيه حياته، وقد قص علينا فيه رحلته الأولى إلى أفريقيا الشمالية، وصوّر لنا ما تركت هذه الرحلة في نفسه من آثار فتنته واستهوته، بعضها خليق أن يرضينا، وكثير منها خليق أن يملأ نفوسنا سخطاً وحرناً، ولكن الكاتب يحدثنا أنه عاد من أفريقيا الشمالية إلى إيطاليا، ثم إلى سويسرا، وهناك لقي صديقه الكاتب الفرنسي المعروف بيير لويس، وكان هذا الصديق في طريقه إلى ألمانيا يريد أن يقضي الفصل الموسيقي هناك؛ ليسمع موسيقى فجنر، كما تعود المترفون والمثقفون وأصحاب الفن أن يفعلوا في كل عام، فلما التقى الصديقان تحدث أندريه جيد إلى صاحبه عما رأى، وتحدث إليه خاصة عن اللهو في مدينة من مدن الجزائر، وعن فتاة من فتيات اللهو في هذه المدينة، يقال لها: مريم، فلم يكذ صاحبه يسمع هذا الحديث حتى زهد في ألمانيا وفي فجنر، وفي الموسيقى، وألغى رحلته هذه، واستأنف رحلة أخرى إلى الجزائر، وذهب إلى هذه المدينة، وعرف هذه المرأة الهلوك، وأقام في الجزائر ما أقام، ثم عاد إلى فرنسا، ومعه كتاب من أروع كتبه وأبرعها وأحبها إلى نفوس الناس، وإن كان ذوقنا نحن لا يسيغه ولا يرضاه، وهو أغاني بلتيس.

ظهر هذا الكتاب في فرنسا آخر القرن الماضي؛ فصدق أكثر الناس

صاحبه فيما زعم لهم، أو فيما خُيِّلَ إليهم من أنه ترجمة لطائفة من الأغاني اليونانية، كانت تتغنى بها امرأة هلوك في بلاد اليونان الآسيوية، ثم في جزيرة ليسبوس، ثم في جزيرة قبرص، مع أن الكتاب لم يكن في حقيقة الأمر إلا ضروبًا من الشعر الذي يصور اللهو والعبث، والذي أوحته إلى الشاعر هذه الفتاة العربية في مدينة من مدن الجزائر، وتستطيع أن تبحث في كتب جيد عن أثر الجزائر في أدب هذا الكاتب العظيم؛ فسترى أن هذا الأثر ليس أقل من أثر فرنسا وإيطاليا وغيرهما من البلاد التي زارها وعاش فيها، ومع ذلك فليس من شك في أن كُتَّابنا وأدباءنا يجوبون آفاق الأرض في الشرق والغرب، ويرون فيها كثيرًا من الأشياء ومن الناس، ويتأثرون فيها بكثير من المؤثرات، فما بالهم لا يكتبون ولا ينظمون الشعر؟ أما أندريه جيد نفسه فقد وجد لهذا السؤال جوابًا أرجو ألا يكون صحيحًا؛ لأنه إن صح كان قضاءً قاسيًا على حياتنا الأدبية والفنية، فهو يرى أن الشرقيين يستنفدون كل ما يجدون من لذة أو ألم أمام مظاهر الطبيعة والحياة في هذه الألفاظ والحركات، التي تصدر عنهم حين يذوقون اللذة أو يحتملون الألم؛ فإذا انتهوا من ذلك لم يبقَ لهم ما يكتبون. ومعنى هذا أن الشرقيين عند هذا الكاتب الفرنسي أدوات للذة القصيرة، والألم القصير يتأثرون ولا يؤثرون، حياتهم كلها حس لا حظ له من إرادة أو تفكير أو تدبير، وهو يستدل على ذلك بأن بلاد الشرق أغنى بلاد الأرض بما يثير الحياة الفنية في نفس صاحب الفن من مظاهر الجمال، وهي على ذلك أفقر بلاد الأرض إذا ذكرنا الآثار الفنية الرائعة، التي تبقي على الدهر وتخلد ما يجده الشرقيون من ضروب اللذة والألم. أما أنا فأرجو — كما قلت — ألا يكون هذا الجواب صحيحًا، وألا يكون فقرنا الفني والأدبي وعجزنا عن أن نصور ما نجد، وعن أن نترجم عن الطبيعة والحياة، صادرًا عن

قصور في طبيعتنا الفنية، ليس إلى علاجه من سبيل.

وأكبر الظن أن مصدر هذا الفقر الذي لا شك فيه أمران اثنان: أحدهما أن حظنا من الثقافة ضئيل جداً، لا يتيح لنا أن نسمع الطبيعة والحياة إذا تحدثتا إلينا، ولا أن نفهمهما إذا سمعنا حديثهما، ولا أن نترجم هذا الحديث إذا فهمناه، والثاني أن حظنا من الحرية الأدبية والفنية ضئيل جداً، لا يتيح لنا أن نعرب عما نجد، ولا أن نصور ما نحس، ولا أن نعلن ما نرى، ولست أشك في أن كثيراً من أدبائنا يتأثرون بالشيء الكثير من حياة الغرب، ثم يعجزون عن تصويره؛ إما لأن ثقافتهم ضئيلة لا تمكنهم من هذا التصوير؛ وإما لأنهم يستحون من هذا التصوير؛ لأن بيئتهم الشرقية الخالصة لم تتعود أن تراه، ولم تتعود أن تسيغه إن رآته، وأكبر الظن أن الشرقيين إن أتيحت لهم الثقافة الواسعة العميقة، وأتيحت لهم الحرية المطلقة السمحة، أخذوا من الإنتاج الفني بحظ عظيم يمحوا ما بينهم وبين الأدباء الغربيين من الفروق. ولكن هل تتاح لهم هذه الثقافة، وهل تتاح لهم هذه الحرية، ومتى يكون ذلك؟ وما السبيل إليه؟ ما أجدر الكتّاب والمفكرين أن يدرسوا هذه المسألة ويحسنوا درسها ويلحوا في الدعوة المنتجة إلى هذه الثقافة وإلى هذه الحرية! فقد يخيل إلي أننا قد جهلنا حتى شبعنا من الجهل، وأننا قد ذللنا حتى تشبعنا من الذل، وأنه قد آن لنا أن نعلم ونكون أحراراً في الأدب والفن، إذا لم يكن بد من أن ننتظر اليوم الذي يؤذن لنا فيه بتذوق الحرية السياسية.